المبحث السادس: عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات:

المطلب الأول:

جزاء المعرضين عن القران

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا}[1]

بدأت السورة بالحديث عن القرآن، وأنه لم ينزل على الرسول ﷺ ليشقى به أو بسببه ومن القرآن قصة موسى عليه السلام وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته، وعاقبة من يعرض عنه ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى، وتخشع الأصوات للرحمن، وتعنو الوجوه للحي القيوم لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس، ويذكرها بالله ويصلها به وينتهي هذا المقطع بإراحة بال الرسول ﷺ من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه، ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً

وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى

وتختم السورة بتسلية الرسول ﷺ عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم، فلهم أجل معلوم ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم

(١) طه: ٩٩ - ١٠٤.

وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن ولقد هلكت القرون من قبلهم، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير، فلينفض يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم

{قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى}

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً}

كذلك القصص الذي أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق نقصه عليك في القرآن ويسمى القرآن ذكراً، فهو ذكر لله ولآياته، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين مشهداً في يوم القيامة فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله

ويا لسوئها من أحمال! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم يتخافتون بينهم بالحديث، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر وفيم يتخافتون؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم، وقصرت أيامها في مشاعرهم، فليست في حسهم سوى أيام قلائل:**{إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً}** فأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر:**{إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً}** وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي؛ ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة؛ ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان، وشيئاً ضئيلاً في القيمة فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها والمتاع؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع؟!

{وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً} تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم

أى: وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا**{ذِكْراً}** عظيما وهو القرآن الكريم، كما قال - تعالى:**{وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لـه مُنكِرُونَ}** قال الفخر الرازى: وفى تسمية

القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس، ففيه التذكير والوعظ

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال - سبحانه:**{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}** ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال:**{مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً}**

والوزر فى الأصل يطلق على الحمل الثقيل، وعلى الإثم والذنب، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام

قال صاحب الكشاف: والمراد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذى يفدح الحامل، وينقض ظهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم

وقد أخبرنا القرآن فى كثير من آياته، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم، أى: أثقال ذنوبهم على ظهورهم، ومن ذلك قوله - تعالى:**{لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ}** أى: من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة: تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله - تعالى:**{وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً}** أى: وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم

قال الآلوسى: قوله:**{وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً}** إنشاء الذم، على أن " ساء " فعل ذم بمعنى بئس وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على " حملا " الواقع تمييزا والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ساء حملهم حملا وزرهم

ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال:**{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً}**

أى: اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية، ونحشر

المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول، أو حالة كونهم " زرقا " أى: عميا، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها أو " زرقا " معناه: عطاشا، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق

قال - تعالى:**{وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}** وقوله - سبحانه:**{يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً}** استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت

أى: إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم فى هذا اليوم العصيب، قائلين: ما لبثتم فى قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام

ومقصدهم من هذا القول: استقصار المدة، وسرعة انقضائها، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب، بعد أن تبين لهم أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون

وقوله - تعالى:**{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ}** بيان لشمول علمه - سبحانه -

أى: نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم، لا يخفى علينا شىء مما يتخافتون به من شأن مدة لبثهم فى قبورهم أو فى الدنيا

{إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً} أى: أعد لهم رأيا، وأرجحهم عقلا**{إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً}** واحدا وقيل المراد باليوم مطلق الوقت، وتنكيره للتقليل والتحقير أى: ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدلى على شدة الهول

قال - تعالى:**{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا}**: أى الساعة**{لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}**

* * * * *

المطلب الثاني:
مساوئ القول بتعدد الألهة

{أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}[1]

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل**{اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ}** أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات الأرض، فقال:**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ}** أي: في السماء والأرض،**{لَفَسَدَتَا}**، كقوله تعالى:**{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}**[2]، وقال هاهنا:**{فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}** أي: عما يقولون إن له ولدًا أو شريكًا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوًا كبيرًا

وقوله:**{لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}** أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه،**{وَهُمْ يُسْأَلُونَ}** أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله:**{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [3]

وهذا كقوله تعالى:**{وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}**[4]

{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [5]

(١) الأنبياء٢١ - ٢٤.
(٢) الأنبياء: ٢١ - ٢٤.
(٣) الحجر٩٢، ٩٣.
(٤) المؤمنون: ٨٨.
(٥) ابن كثير: ٣١٧.

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم ووصف هؤلاء بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها فمن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض فهل الآلهة التي اتخذوها تفعل هذا؟ إنها لا تفعل، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة فهي إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله

ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود:**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا}**

فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً؛ وينسق بين أجزائه جميعاً؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ولتعددت النواميس تبعاً لها فالإرادة مظهر الذات المريدة والناموس مظهر الإرادة النافذة ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس، ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره:

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}

وهم يصفونه بأن له شركاء تنزه الله المتعالي المسيطر:**{رَبُّ العَرْشِ}** والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون

{لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل؛ ومن ذا الذي يسأله؛ وهو القاهر فوق عباده، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذه حاكماً لنظام الوجود؟ والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم

ومقياس يوضع والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس، ولا تتقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المتعجب: ولماذا صنع الله كذا وما الحكمة في هذا الصنيع؟ وكأنما يريدون ليقولوا: إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع!

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب والواجب في حق المعبود، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود

إن الذي يعلم كل شيء، ويدبر كل شيء، ويسيطر على كل شيء، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم**{لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}**

وإلى جانب الدليل الكوني المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلي الذي يستندون إليه في دعوى الشرك التي لا تعتمد على دليل:

{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}

فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ﷺ وهناك ذكر من سبقه من الرسل وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل:

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ}

* * * * *

المطلب الثالث:

عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}(١)

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن يبعث الله الرسل للناس لا تبديل فيها ولا تحويل توحيد الإله وتوحيد المعبود؛ ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولداً

وهي إحدى مقولات الجاهلية السخيفة:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}

ودعوى البنوة لله سبحانه دعوى اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزير لله وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة فهم ليسوا بنات لله كما يزعمون**{بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ}** عند الله لا يقترحون عليه شيئاً تأدباً وطاعة وإجلالاً إنما يعملون بأمره لا يناقشون وعلم الله بهم محيط ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته على

(١) الأنبياء: ٢٥ - ٢٩.

قـربهم وطهـارتهم وطـاعتهم التـي لا اسـتثناء فيهـا ولا انحـراف عنهـا وهـم لا يـدعون الألوهيـة قطعـاً ولـو ادعوهـا جـدلاً لكـان جـزاؤهم جـزاء مـن يـدعي الألوهيـة كائنـاً مـن كـان، وهـو جهـنم فـذلك جـزاء الظـالمين الـذين يـدعون هـذه الـدعوى الظالمة لكل حق، ولكل أحد، ولكل شيء في هذا الوجود

وكذلك تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة، لا يدعيها أحد ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم!

وكـذلك يلمـس الوجـدان بمشـهد الملائكـة طـائعين لله، مشـفقين مـن خشـيته بينمـا المشركون يتطاولون ويدعون!

وعنـد هـذا الحـد مـن عـرض الأدلـة الكونيـة الشـاهدة بالوحـدة؛ والأدلـة النقليـة النافيـة للتعـدد؛ والأدلـة الوجدانيـة التـي تلمـس القلـوب يجـول السـياق بالقلـب البشـري فـي مجـالي الكـون الضـخمة، ويـد القـدرة تـدبره بحكمـة، وهـم معرضـون عـن آياتهـا المعروضـة علـى الأنظـار والقلـوب ومـا أرسـلنا مـن قبلـك مـن رسـول يـا محمـد إلا وأفهمنـاه عـن طريـق وحينـا أنـه لا إلـه يسـتحق العبـادة والطاعـة إلا أنـا، فعليـه أن يأمر قومه بطاعتى وعبادتى والخضوع لى وحدى

هذا، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون

* * * * *

المطلب الرابع:
أدلة توحيد الله تعالى

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}(١)

وللعلماء فى معنى هذه الآية أقوال أشهرها: أن معنى**{كَانَتَا رَتْقاً}**: أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات، ففتق الله - تعالى - السماء بأن جعل المطر ينزل منها، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها

وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس، فقد سئل عن ذلك فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق - سبحانه - للأرض أهلا، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات

ومنهم من يرى أن المعنى: كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشىء الواحد، ففتقهما الله - تعالى - بأن فصل بينهما، فرفع السماء إلى مكانها، وأبقى الأرض فى مقرها، وفصل بينهما بالهواء

قال قتادة: قوله:**{كَانَتَا رَتْقاً}**: يعنى أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله بينهما بالهواء

ومنهم من يرى أن معنى " كانتا رتقا " أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض ففتقها الله - تعالى - بأن جعلها سبع سموات منفصلة، والأرضون كانت كذلك رتقا، ففصل الله - تعالى - بينها وجعلها سبعا

قال مجاهد: كانت السموات طبقة واحدة مؤتلفة، ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا "

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما ملخصه: كونهما " كانتا رتقا " بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت، ففتق - سبحانه - السماء بالمطر والأرض بالنبات، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله - تعالى - منها:

(١) الأنبياء: ٣٠ - ٣٣.

أن قولـه - تعالى:**{أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا}** يدل على أنهم رأوا ذلك لأن الأظهر فى رأى أنها بصرية، والذى يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض لا نبات فيها فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء، وخروج النبات من الأرض

ومنهـا: أنـه - سبحانه - أتبـع ذلك بقولـه:**{وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** والظـاهر اتصال هذا الكلام بما قبله أى: وجعلنا من الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض، كل شىء حى

ومنها: أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى، كقولـه - تعالى:**{والسمآء ذَاتِ الرجع والأرض ذَاتِ الصدع}** والمراد بالرجع: نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازى

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح، لأن المطر لا ينزل من السموات، بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا؟

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع، لأن كل قطعة فيها سماء كما يقال: ثوب أخلاق - أى: قطع

والآية الكريمة مسوقة بتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، ويعلمون أن من كان كذلك، لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه، مما لا يضر ولا ينفع

والمعنـى: أو لـم يشـاهد الـذين كفـروا بأبصـارهم، ويعلمـوا بعقـولهم، أن السـموات والأرض كانتا رتقا، بحيث لا ينزل من السماء مطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ففتق الله - تعالى - السماء بالمطر، والأرض بالنبات

إنهم بلا شك يشاهدون ذلك، ويعقلونه بأفكارهم ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم، يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفع من عَبَده، ولا يضر من عصاه

وقال - سبحانه:**{كَانَتَا}** بالتثنية، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض، كما فى قولـه - تعالى:**{إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ}** وقولـه - تعالى:**{وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** تأكيد لمضمون ما سبق، وتقرير لوحدانيته ونفاذ قدرته - سبحانه - والجعل بمعنى الخلق و**{مِنَ}** ابتدائية

أى: وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة، كل شيء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شيء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو

وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى، لأن الملائكة - كما جاء فى بعض الأخبار - خلقوا من النور، والجن مخلوقون من النار

قال - تعالى:**{خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ}** قال القرطبى: وفى قوله - تعالى:**{وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء قاله قتادة: الثانى: حفظ حياة كل شيء بالماء: الثالث: وجعلنا من ماء الصلب - أى: النطفة - كل شيء حى

وقوله:**{أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ}** إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار

أى: أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته ومع ذلك لا يؤمنون؟ إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب، وأغرب الغرائب!!

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال:**{وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ}**

الرواسى: جمع راسية، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة فى الأرض

أى: وجعلنا فى الأرض جبالا ثوابت، كراهة أن**{تَمِيدَ بِهِمْ}** أى: أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض يقال: ماد الشيء يميد ميدا - من باب باع - إذا تحرك واهتز**{وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}**، والفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع

والسبل: جمع سبيل وهو الطريق وهو بدل من**{فِجَاجاً}**

أى: وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة، ومنافذ متعددة، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التى يريدون الوصول إليها ويعلمون أن الذى وهبهم كل هذه النعم، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة

{وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} أى: وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت، وجعلناه محفوظا من السقوط ومن التشقق، ومن كل شيطان

رجيم وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا معرضون ذاهلون، لا يتعظون ولا يتذكرون

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط، قوله - تعالى:**{ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله - سبحانه:**{أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}**(١) وعلى حفظها من الشياطين قوله - تعالى:**{وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ}**(٢) ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله - سبحانه:**{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}** ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله - تعالى:**{وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}**

أى: وهو وحده - سبحانه - الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب " كل " أى: كل واحد من الشمس والقمر يسير فى فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام، كالسابح فى الماء

وقوله:**{يَسْبَحُونَ}** من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء

وجاء يسبحون بضمير العقلاء لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء، كما فى قوله - تعالى:**{والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته

ثم بين - سبحانه - أن مصير البشر جميعا إلى الفناء، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها، وأن المشركين لو علموا المصير السيىء الذى ينتظرهم يوم القيامة، لما قالوا ما قالوه من باطل، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح(٣)

إنها جولة في الكون المعروض للأنظار، والقلوب غافلة عن آياته الكبار، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ

(١) ق: ٦.
(٢) الحجر: ١٧.
(٣) تفسير سيد طنطاوي صفحة: ٣٢٤.

وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقتا، مسألة جديرة بالتأمل، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مائة وألف عام

فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر كانت سديماً ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم وقد تنقض غداً، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية

ونحن أصحاب هذه العقيدة - لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تقبل اليوم وترفض غداً لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخاراً وتجمده بالبرودة إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية وهي شيء آخر غير النظريات العلمية كما بينا من قبل في الظلال

إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علماً تجريبياً كذلك إنما هو منهج للحياة كلها منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا:**{أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا}** ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض أو فتق السماوات عن الأرض ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال: إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال!

فأما شطر الآية الثاني:**{وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** فيقرر كذلك حقيقة خطيرة يعد

العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً ويمجدون «دارون» لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول

وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود:**{أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ؟}** وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم؟

ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة:**{وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ}**

فيقرر أن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة: وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحي، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير:**{وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}**

وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ سبلاً وطرقاً ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولاً، ثم يشير من طرف خفي إلى شأن آخر في عالم العقيدة فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال!

{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً} والسماء كل ما علا ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق ومحفوظ من

الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذي تتنزل منه آيات الله{وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة بحياة الإنسان في الأرض وبالحياة كلها والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة؛ وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير

وفي نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون في خلقه وتكوينه وتصريفه؛ ونواميس الحياة البشرية في طبيعتها ونهايتها ومصيرها

* * * * *

المطلب الخامس:

وحدة الأديان السماوية

{إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَه كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ}(١)

لفظ الأمة يطلق بإطلاق متعددة يطلق على الجماعة كما فى قوله - تعالى:{وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ}(٢) ويطلق على الرجل الجامع للخير، كما فى قوله - تعالى:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً}(٣) ويطلق على الحين والزمان، كما فى قوله - سبحانه:{وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ} أى وتذكر بعد حين من الزمان

والمراد بالأمة هنا: الدين والملّة كما فى قوله - تعالى:{إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ} أى:

(١) الأنبياء: ٩٢ - ١٠٠.
(٢) القصص: ٢٣.
(٣) النحل: ١٢٠.

على دين وملة معينة

والمعنى: إن ملة التوحيد التى جاء بها الأنبياء جميعا هى ملتكم ودينكم أيها الناس، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء، وأن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شىء، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذى جاء به الرسل، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال:**{وتقطعوا أَمْرَهُمْ}**

والضمير فى قوله - تعالى:**{وَتَقَطَّعُوا}** يعود للناس الذين تفرقوا فى شأن الدين شيعا وأحزابا أى: وافترق الناس فى شأن الدين الحق فرقا متعددة، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا، يجازى فيه المحسن خيرا، ويعاقب فيه المسىء على إساءته

وقال - سبحانه:**{فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ}** بالنفى المفيد للعموم، لبيان كمال عدالته - تعالى - وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم أحد، أو أخذ شىء مما يستحقه

وعبر عن العلم بالسعى، لإظهار الاعتداد به، وأن صاحب هذا العمل الصالح، قد بذل فيه جهدا مشكورا، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته

ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب، فقال:**{وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}**

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها:

أن المعنى: وحرام - أى: وممتنع امتناعا تاما - على قرية أهلكنا أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا فى الآخرة للحساب

فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم، والذين آمنوا وعملوا صالحا فى دنياهم، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة

وقد أكدت الآية الكريمة ورجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب بديع، حيث نفت عن الأذهان ما قد يبتادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب فى الدنيا، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد

قال صاحب فتح القدير:**{وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ}** قرأ أهل المدينة "حرام"، وقرأ أهل

الكوفة " وحرم " - بكسر الحاء وإسكان الراء - وهما لغتان مثل: حلال وحل

ومعنى **{أَهْلَكْنَاهَآ}**: قدرنا إهلاكها وجملة:**{أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** فى محل رفع مبتدأ، وقوله: " حرام " خبرها والمعنى: وممتنع ألبتة عدم رجوعها إلينا للجزاء

وقال بعض العلماء: " وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها و" لا " فيها على بابها وهى مع لفظ " حرام " من قبيل نفى النفى فيدل على الإثبات، والمعنى: وحرام على القرية المهلكة عدم رجوعها إلى الآخرة، بل واجب رجوعها للجزاء، فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه - سبحانه - سيحييه وبعمله يجزيه

ومنهم من يرى أن " لا " زائدة، وأن المراد بالرجوع رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى: وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم

ومنهم من يرى أن المراد بقوله - تعالى:**{أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** أى: لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان

قال صاحب الكشاف: استعير الحرام للممتنع وجوده، ومنه قوله - تعالى:**{إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين}** أى منعهما منهم ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة فى بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون فى الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال - تعالى:**{قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}**[1] ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - بعد ذلك:**{حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ}**[2]

(١) سورة الواقعة: ٢٩.
(٢) سورة الأنبياء: ٩٦.

فإن حتى هنا ابتدائية: وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها، فكأنه قيل: إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب، ويقولوا عند مشاهدته: يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس، قيل: مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر، وقيل: من الأوج وهو سرعى الجرى

والمراد بفتحهما: فتح السد الذى على هاتين القبيلتين، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس

{وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} والحدب: المترفع من الأرض كالجبل ونحوه

و**{يَنسِلُونَ}** من النسل - بإسكان السين - وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى السير، يقال: نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع، وفعله من باب قعد وضرب

أى: وهم - أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل: إن الضمير " هم ": يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل: إن الضمير " هم " يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر

وقوله:**{وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ}** معطوف على**{فُتِحَتْ}** أى: فتح السد الذى كان على يأجوج ومأجوج، وقرب موعد الحساب والجزاء

قال الآلوسى: وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء، وبعد قتله الدجال

فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث طويل: إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى، لا يدان لك بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور، فيبعث الله - تعالى - يأجوج ومأجوج وهم كما قال - سبحانه:**{مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}** ثم يرسل الله عليهم نغفا - فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة "

وقوله:**{فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** جواب للشرط وهو قوله: تعالى - قبل ذلك**{إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ}**

والضمير " هى " للقصة والشأن و" إذا " للمفاجأة

قال الجمل: قوله:{فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ} فيه وجهان: أحدهما - وهو الأجود - أن يكون هى ضمير القصة وشاخصة: خبر مقدم وأبصار: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر لهى لأنها لا تفسير إلا بجملة مصرح بجزأيها

والمعنى: لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة، ومن خروج يأجوج ومأجوج، ومن عودة الخلق إلينا للحساب ورأى المشركون كل ذلك، فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع

يقال: شخص بصر فلان يشخص شخوصا فهو شاخص، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما

وقوله:{ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا} مقول لقول محذوف

أى: أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصوا البصر: يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك، فإننا قد كنا فى الدنيا فى غفلة تامة عن هذا اليوم الذى أحضرنا فيه للحساب

وقوله:{بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود

أى: لم نكن فى الحقيقة فى غفلة عن هذا اليوم وأهواله، فقد أخبرنا رسلنا به، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعمهم، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة فى يوم لا ينفعهم فيه ذلك

وقوله - سبحانه:{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ} زيادة فى تقريعهم وتوبيخهم

والحَصَب - بفتحتين: ما تحصب به النار أى: يلقى فيها لتزداد به اشتعالا كالحطب والخشب

أى: إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى - وقود جهنم، وزادها الذى تزداد به اشتعالا

وفى إلقاء أصنامهم معهم فى النار مع أنها لا تعقل، زيادة فى حسرتهم وتبكيتهم،

حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قرنوا بآلهتهم؟ قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم، النظر إلى وجه العدو باب من العذاب، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة، وينتفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا، لم يكن شىء أبغض إليهم منهم

وجملة:**{أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}** بدل من:**{حَصَبُ جَهَنَّمَ}**، أو مستأنفة

أى: أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون فى جهنم دخولا لا مفر لكم منه وجاء الخطاب بقوله:**{أَنتُمْ}** على سبيل التغليب، وإلا فالجميع داخلون فيها

ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاءالمشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزير والملائكة، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده

ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال:**{لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا}**

أى: لو كان هؤلاء الأصنام المبعودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها الكافرون - ما ألقى بهم فى النار، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب، وحيث تبين لكم دخولهم إياه، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها

وقوله:**{وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ}** تذييل مقرر لما قبله أى: وكل من العابدين والمعبودين باقون فى هذه النار على سبيل الخلود الأبدى

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين فى جهنم فقال:**{لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ}** أى: لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر، كما هو شأن المغموم المحزون وأصل الزفير: تردد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع

{وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ} أى: وهم فى جهنم لا يسمعون ما يريحهم، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم، أو: وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود؛ والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى أخراها دون تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير

إنما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد، بقدر استعداد كل أمة، وتطور كل جيل؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها، واستعدادها لأنماط من التكاليف ومن التشريعات؛ وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت من التجارب، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلاً بعد جيل

ومع وحدة أمة الرسل، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها وثار بينهم الجدل، وكثر بينهم الخلاف، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً باسم العقيدة والعقيدة واحدة، وأمة الرسل كلها واحدة

لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا ولكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله في الآخرة: **{كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ}** فالمرجع إليه وحده، وهو الذي يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال: **{فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ}**[1]

* * * * *

(١) الظلال لسيد قطب: ٣٣٠.

المطلب السادس:

نفى اتخاذ الله ولدا

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}(١)

ولقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة، لا ينكرون الله، ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض، مدبر السماوات والأرض، المسيطر على السماوات والأرض ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة، يقولون: إنهم يعبدونها لتقربهم من الله، وينسبون له البنات سبحانه وتعالى عما يصفون، فهو هنا يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه ملسماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون:

{قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}(٢)

وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذي لا يفيء إلى منطق، ولا يرتكن إلى عقل؛ ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام

{قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} فهو سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها:**{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}** ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله:**{قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}**

{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ} فهو سؤال عن الربوبية المدبرة، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم والسماوات السبع قد تكون أفلاكاً سبعة، أو مجموعات نجمية سبعة، أو سدماً سبعة، أو عوالم سبعة، أو أية خلائق فلكية سبعة والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود فمن هو رب السماوات السبع ورب

(١) الأنبياء: ٩١ - ٩٢.
(٢) المؤمنون: ٨٤ - ٨٩.

العرش العظيم؟**{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}** ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش، ولا يتقون رب السماوات السبع، وهم يشركون معه أصناماً مهينة، ملقاة على الأرض لا تريم**{قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}**

{قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} فهو سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان سؤال عمن بيده ملكية كل شيء ملكية استعلاء وسيطرة ومن هو الذي يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد؛ ولا يملك أحد أن يجير عليه، وأن ينقذ من يريده بسوء من عباده من؟**{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}** فما لهم يصرفون عن عبادة الله؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخبط كالذي مسه السحر:**{قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}**

ألا إنه الاضطراب والتخبط الذي يصاب به المسحورون!

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، في اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجيء هذا التقرير:

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}(١)

يجيء هذا التقرير في أساليب شتى بالإضراب عن الجدل معهم، وتقرير كذبهم الأكيد:**{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** ثم يفصل فيما هم كاذبون:**{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}** ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة:**{إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}** مستقلاً بما خلقه، يصرفه حسب ناموس خاص؛ فيصبح لكل جزء من الكون، أو لكل فريق من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع**{وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف واحد، وتدبير واحد

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب**{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}**

(١) المؤمنون: ٩٠ - ٩٢.

{عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} فليس لغيره من خلق يستقل به، ويعلم من دون الله أمره**{فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** (١)

أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهية وقدمت النتيجة على القياس لتجعل هي المطلوب فإن النتيجة والمطلوب متحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل وهو القياس تسمى مطلوباً كما في علم المنطق ولتقديمها نكتة أن هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان فقوله:**{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}** هو المطلوب وقوله:**{إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}** إلى آخر الآية هو الدليل وتقديم هذا المطلوب على الدليل أغنى عن التصريح بالنتيجة عقب الدليل

وذكر نفي الولد استقصاء للرد على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإن منهم من توهم أنه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله

وإنما قدم نفي الولد على نفي الشريك مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظراً إلى أن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام لأن الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً عند قوله تعالى:**{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ}**(٢)

و (إذن) حرف جواب وجزاء لكلام قبلها ملفوظ أو مقدر والكلام المجاب هنا هو ما تضمنه قوله:**{وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}** فالجواب ضد ذلك النفي وإذ قد كان هذا الضد أمراً مستحيل الوقوع تعين أن يقدر له شرط على وجه الفرض والتقدير، والحرف المعد لمثل هذا الشرط هو (لو) الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق

وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد (إذن) دليل على أن المقدر شرط (لو) لأن اللام تلزم جواب (لو) ولأن غالب مواقع (إذن) أن تكون جواب (لو) فلذلك جاز حذف

(١) الظلال: ٣٤٨.
(٢) المؤمنون: ٨٦.

الشرط هنا لظهور تقديره

وقد تقدم بيان ذلك عند قولـه تعالى:{ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ}[1]

فقولـه:{إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ} استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة

وإنما لم يستدل على امتناع أن يتخذ الله ولداً لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص فإنه لو كان لله ولد لكان الأولاد آلهة لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصله كما دل عليه قولـه تعالى:{قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ}[2] أي لـه

والذهاب في قولـه:{لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ} مستعار للاستقلال بالمذهوب بـه وعدم مشاركة غيره لـه فيه

وبيان انتظام هذا الاستدلال أنه لو كان مع الله ءالهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالقاً لمخلوقات لثبوت الموجودات الحادثة وهي مخلوقة، فلا جائز أن تتوارد الآلهة على مخلوق واحد لأن ذلك: إما لعجز عن الانفراد بخلق بعض المخلوقات وهذا لا ينافي الإلهية، وإما تحصيل للحاصل وهو محال، فتعين أن ينفرد كل إله بطائفة من المخلوقات

ولنفرض أن تكون مخلوقات كل إلـه مساوية لمخلوقات غيره بناء على أن الحكمة تقتضي مقداراً معيناً من المخلوقات يعلمها الإله الخالق لها؛ فتعين أن لا تكون للإله الذي لم يخلق طائفة من المخلوقات ربوبيةٌ على ما لم يخلقه وهذا يفضي إلى نقص في كل من الآلهة وهو يستلزم المحال لأن الإلهية تقتضي الكمال لا النقص ولا جرم أن تلك المخلوقات ستكون بعد خلقها معرضة للزيادة والنقصان والقوة والضعف بحسب ما يحف بها عن عوارض الوجود التي لا تخلو عنها المخلوقات كما هو مشاهد في مخلوقات الله تعالى الواحد ولا مناص عن ذلك لأن خالق المخلوقات أودع فيها خصائص ملازمة لها كما اقتضته حكمته، فتلك المخلوقات مظاهر لخصائصها لا محالة فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات

(١) النساء: ١٤٠.
(٢) الزخرف: ٨١.

لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين:

أولهما: أن يكون كل إله مختصاً بمخلوقاته فلا يتصرف فيها غيره من الآلهة ولا يتصرف هو في مخلوقات غيره، فيقتضي ذلك أن كل إله من الآلهة عاجز عن التصرف في مخلوقات غيره وهذا يستلزم المحال لأن العجز نقص والنقص ينافي حقيقة الإلهية وهذا دليل برهاني على الوحدانية لأنه أدى إلى استحالة ضدها فهذا معنى قوله تعالى:**{لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}**

وثاني: اللازمين: أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الآلهة أقوى من بعض وهو مناف للمساواة في الإلهية وهذا معنى قوله تعالى:**{وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**

وهذا الثاني بناء على المعتاد من لوازم الإلهية في أنظار المفكرين، وإلا فيجوز اتفاق الآلهة على أن لا يخلقوا مخلوقات قابلة للتفاوت بأن لا يخلقوا إلا حجارة أو حديداً مثلاً؛ إلا أن هذا ينافي الواقع في المخلوقات

ويجوز اتفاق الآلهة أيضاً على أن لا يعتز بعضهم على بعض بسبب تفاوت ملكوت كل على ملكوت الآخر بناء على ما اتصفوا به من الحكمة المتماثلة التي تعصمهم عن صدور ما يؤدي إلى اختلال المجد الإلهي؛ إلا أن هذا المعنى لا يخلو من المصانعة وهي مشعرة بضعف المقدرة

فبذلك كان الاستدلال الذي في هذه الآية برهانياً، وهو مثل الاستدلال الذي في قوله تعالى**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا}** [1] إلا أن هذا بني على بعض لزوم النقص في ذات الآلهة وهو ما لا يجوزه المردود عليهم، والآخر بني على لزوم اختلال أحوال المخلوقات السماوية والأرضية وهو ما تبطله المشاهدة

أما الدليل البرهاني الخالص على استحالة تعدد الآلهة بالذات فله مقدمات أخرى قد

(١) الأنبياء: ٢٢.

وقّى أيمة علم الكلام بسطها بما لارواج بعده لعقيدة الشرك وقد أشار إلى طريقة منها المحقق عمر القزويني في هذا الموضع من «حاشيته» على «الكشاف» ولكنه انفرد بادعاء أنه مأخوذ من الآية وليس كما ادعى وقد ساقه الشهاب الآلوسي فإن شئت فتأمله

ولما اقتضى هذا الدليل بطلان قولهم عقب الدليل بتنزيه الله تعالى عن أقوال المشركين بقوله تعالى:**{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}** وهو بمنزلة نتيجة الدليل وما يصفونه به هو ما اختصوا بوصفهم الله به من الشركاء في الإلهية ومن تعذر البعث عليه ونحو ذلك وهو الذي جرى فيه غرض الكلام

وإنما أتبع الاستدلال على انتفاء الشريك بقوله:**{عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** المراد به عموم العلم وإحاطته بكل شيء كما أفادته لام التعريف في**{الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** من الاستغراق الحقيقي، أي عالم كل مغيب وكل ظاهر، لدفع توهم أن يقال: إن استقلال كل إله بما خلق قد لا يفضي إلى علو بعض الآلهة على بعض، لجواز أن لا يعلم أحد من الآلهة بمقدار تفاوت ملكوته على ملكوت الآخر فلا يحصل علو بعضهم على بعض لاشتغال كل إله بملكوته ووجه الدفع: أن الإله إذا جاز أن يكون غير خالق لطائفة من المخلوقات التي خلقها غيره لئلا تتداخل القُدَر في مقدورات واحدة لا يجوز أن يكون غير عالم بما خلقه غيره لأن صفات العلم لا تتداخل، فإذا علم أحد الآلهة مقدار ملكوت شركائه فالعالم بأشدية ملكوته يعلو على من هو دونه في الملكوت فظهر أن قوله:**{عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** من تمام الاستدلال على انتفاء الشركاء، ولذلك فرع عنه بالفاء قوله:**{فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف:**{عَالِمُ الغَيْبِ}** برفع**{عَالِمِ}** على أنه خبر مبتدأ محذوف وهو من الحذف الشائع في الاستعمال إذا أريد الإخبار عن شيء بعد أن أجريت عليه أخبار أو صفات

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب بجر**{عَالِمُ}** على الوصف لاسم الجلالة في قوله:**{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}**

و (ما) مصدرية والمعنى فتعالى عن إشراكهم، أي هو أعظم من أن يكون موصوفاً بكونه مشاركاً في وصفه العظيم، أي هو منزه عن ذلك [1]

* * * * *

(١) تفسير ابن عشور: ٣٤٨.

المطلب السابع:
القرآن والنبوة

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}(١)

قال الإمام الرازى: اعلم أنه - سبحانه - لما تمم الكلام فى إثبات المبدأ والمعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة، ولما كانت الدلالة الكبرى فى إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن، لا جرم بين الله - تعالى - أولا كونه معجزة

أى: إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله - تعالى - أنه يقص على بنى إسرائيل، الذين هم حملة التوراة والإنجيل، أكثر الأشياء التى اختلفوا فيها، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه

ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل: اختلافهم فى شأن عيسى - عليه السلام - فاليهود كفروا به، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان، والنصارى قالوا فيه إنه الله، أو هو ابن الله، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال: من بين ما قاله:**{إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}** وقال - سبحانه:**{يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** للإشارة إلى أن القرآن ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكيها، لأنه لا يتعلق بذكرها غرض هام يستدعى الحديث عنها، ولأن فى عدم ذكرها سترا لهم، عما وقعوا فيه من أخطاء

وقوله - تعالى:**{وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}** صفة أخرى من صفات القرآن الكريم الدالة على أنه من عند الله - تعالى

أى: وإن هذا القرآن لمن صفاته - أيضا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصراط المستقيم، ورحمة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله

وخص هدايته ورحمته بالمؤمنين، لأنهم هم الذين آمنوا به، وصدقوا بما فيه،

(١) النمل: ٧٦ - ٨١.

وعملوا بأوامره، واجتنبوا نواهيه، وطبقوا على أنفسهم أحكامه، وآدابه، وتشريعاته

ثم بين - سبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده فقال:**{إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ}**

أى: إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين بنى إسراءيل الذين اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا، بحكمه العادل، كما يقضى بين غيرهم، فيجازى الذين أساؤوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى

{وَهُوَ} - سبحانه:**{وَهُوَ العَزِيزُ}** الذى لا يغالب**{العَلِيمُ}** بكل شىء فى هذا الوجود، والفاء فى قوله - تعالى:**{فَتَوَكَّلْ عَلَى الله}** للتفريع أى: ما دمت قد عرفت ذلك - أيها الرسول الكريم - ففوض أمرك إلى العزيز العليم وحده، وتوكل عليه دون سواه، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحدا إلا إياه

وجملة " إنك على الحق المبين " تعليل للتوكل على الله وحده

أى: توكل على الله - تعالى - وحده، لأنك - أيها الرسول الكريم - على الحق الواضح البين، الذى لا تحوم حوله شبهة من باطل

وقوله - تعالى:**{إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ}** تعليل آخر لوجوب التوكل على الله - تعالى

وقد شبه - سحبانه - أولئك المشركين، بالأموات الذين فقدوا الحياة، وبالصم الذين فقدوا السمع، وبالعمى الذين فقدوا البصر، وذلك لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس، فصاروا كالفاقدين لها

أى: دُمْ - أيها الرسول الكريم - على توكلك على الله - تعالى - وحده، وإنك لا تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين ما يردهم عن شركهم، لأنهم كالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع

وقوله:**{إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ}** لتتميم التشبيه وتأكيد نفى السماع أى: إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما، وأدبروا عن الاستماع إليك

قال الجمل: فإن قلت: ما معنى قوله:**{مُدْبِرِينَ}** والأصم لا يسمع سواء أقبل أو أدبر؟

قلت: هو تأكيد ومبالغة للأصم وقيل: إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع

الصوت، أو يفهم بالإشارة، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم

ومعنى الآية: إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت، الذى لا سبيل إلى إسماعه، وكالأصم الذى لا يسمع ولا يفهم

وقوله - سبحانه:**{وَمَآ أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلالَتِهِمْ}** أى: وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تصرف العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه، لأن الهداية إلى طريق الحق، مردها إلى الله - تعالى - وحده

ثم بين - سبحانه - فى مقابل ذلك، من هم أهل السماع والبصر فقال:**{إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}**

أى: أنت - أيها الرسول الكريم - ما تستطيع أن تسمع إسماعا مجديا نافعا، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا، المسلمون وجوههم لنا

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت الكثير من وسائل التسلية للرسول ﷺ عما أصابه من المشركين، كما ساقت ما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى: وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل الحقّ، في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم: إن هذا القرآن يقصّ عليكم الحق فيما اختلفتم فيه فاتبعوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقص عليكم بالحقّ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد

إن هذا القرآن لهدى، يقول: لبيان من الله، بَيَّنَ به الحق فيما اختلف فيه خلقه من أمور دينهم**{وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}** يقول: ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه،**{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ}** يقول: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فينتقم من المبطل منهم، ويجازي المحسن منهم المحقّ بجزائه،**{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}** يقول: وربك

العزيز في انتقامه من المبطل منهم ومن غيرهم، لا يقدر أحد على منعه من الانتقام منه إذا انتقم العليم بالمحق المحسن من هؤلاء المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المبطل الضالّ عن الهدى

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ففوِّض إلى الله يا محمد أمورك، وثق به فيها، فإنه كافيك**{إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}** لمن تأمَّله، وفكر ما فيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحقّ، دون ما عليه اليهود والنصارى، المختلفون من بني إسرائيل، ودون ما عليه أهل الأوثان، المكذّبوك فيما أتيتهم به من الحقّ، يقول: فلا يحزنك تكذيب من كذّبك، وخلاف من خالفك، وامض لأمر ربك الذي بعثك به

وقوله:**{إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}** يقول: إنك يا محمد لا تقدر أن تُفهِم الحقّ من طبع الله على قلبه فأماته، لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه**{وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ}** يقول: ولا تقدر أن تسمع ذلك من أصمّ الله عن سماعه سمعه**{إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}** يقول: إذا هم أدبروا معرضين عنه، لا يسمعون له لغلبة دين الكفر على قلوبهم، ولا يُصغون للحقّ، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائله، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع له

القول في تأويل قوله تعالى:**{وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ}**(١)

اختلف القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين:**{وَمَا أَنْتَ بِهَادِي}** بالياء والألف وإضافته إلى العمي بمعنى: لست يا محمد بهادي من عمي عن الحقّ**{عَنْ ضَلالَتِهِمْ}** وقراءة عامة قرّاء الكوفة**{وَمَا أَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ}** بالتاء ونصب العمي، بمعنى: ولست تهديهم**{عَنْ ضَلالَتِهِمْ}** ولكن الله يهديهم إن شاء

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مشهورتان في قرّاء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب وتأويل الكلام ما وصفت**{وَمَا أَنْتَ}** يا محمد**{بِهادِي}** من أعماه الله عن الهدى والرشاد فجعل على بصره غشاوة أن يتبين سبيل الرشاد عن

(١) النمل: ٨١، ٨٢.

ضلالته التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد [1]

ولقد اختلف النصارى في المسيح عليه السلام وفي أمه مريم قالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة: إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والابن وروح القدس (والابن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً وولد منها في صورة يسوع! وجماعة قالت: إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما! وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الابن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر **{إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}** وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون

واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف منهم من قال: إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء ومنهم من قال: إن يهوذا أحد حواريه الذي خانه ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب

ومنهم من قال: ألقي شبهه على الحواري سيمون وأخذ به وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال:**{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}** وقال:**{يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ}** وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله:**{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}** وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مطهراً من الأقذار التي ألصقتها

(١) تفسير الطبري: ٣٨٣.

هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً!

إبراهيم بزعمهم قدم امرأته لأبي مالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما! ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو! ولوط بزعمهم أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر وكان ما أرادتا! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته! وسليمان مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها!

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم عليه السلام

وهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله الذي يفصل في خلافات القوم فيها، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذي يجادل فيه المشركون، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين!

{وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}

{هُدَى} يقيهم من الاختلاف والضلال، ويوحد المنهج، ويعين الطريق، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد،**{وَرَحْمَةً}** يرحمهم من الشك والقلق والحيرة، والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال؛ ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه، ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون في يسر وبساطة، بلا تكلف ولا تعمل ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى؛ لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به،

وعرفت أن ناموسها هو ناموسه وهذا التناسق بين النفس والكون، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة، والسلام بين البشر، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار وهذه هي الرحمة في أشمل صورها ومعانيها

وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة يقرر لرسول الله ﷺ أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه، ويحكم بينهم حكمه الذي لا مرد له حكمه القوي المبني على العلم اليقين:**{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ}** (١)

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار سنة لا تتخلف قد تبطئ لحكمة يعلمها الله، وتتحقق بها غايات يقدرها الله ولكن السنة ماضية وعد الله لا يخلف الله وعده ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر

ويمضي في تسلية الرسول ﷺ وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله؛ فهو لم يقصر في دعوته ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعي آذانهم فتتحرك قلوبهم، فيقبلون على الناصح الأمين فأما الذين ماتت قلوبهم، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان، فما له فيهم حيلة، وليس له إلى قلوبهم سبيل؛ ولا ضير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل:**{إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}**(٢)

(١) النمل: ٧٩.
(٢) النمل: ٨٠، ٨١.

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة حالة جمود القلب، وخمود الروح، وبلادة الحس، وهمود الشعور فيخرجهم مرة في صورة الموتى، والرسول ﷺ يدعو، وهم لا يسمعون الدعاء، لأن الموتى لا يشعرون! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي، لأنهم لا يسمعون! ويخرجهم مرة في صورة العمي يمضون في عماهم؛ لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون! وتتراءى هذه الصور المجسمة المتحركة، فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور!

وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون فهم الأحياء، وهم السامعون، وهم المبصرون: **{إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}**

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله، بالحياة والسمع والبصر وآية الحياة الشعور وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم وعمل الرسول ﷺ هو أن يسمعهم، فيدلهم على آيات الله، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم **{فَهُم مُّسْلِمُونَ}**

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه، حتى يستسلم له، فلا يشاق فيه

وهكذا يصور القرآن تلك القلوب، القابلة للهدى، المستعدة للاستماع، التي لا تجادل ولا تماري بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله، فتؤمن لها وتستجيب[1]

* * * * *

(١) الظلال: ٣٨٣.

المطلب الثامن:

المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}(١)

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** (٢)، وقال:**{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ}**(٣)، وقال:**{إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا}**(٤)

وقال:**{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** (٥)

قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم:**{يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}** حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}** يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له

قال الله:**{أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}** أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم

(١) القصص: ٥٢ ـ ٥٥.
(٢) البقرة: ١٢١.
(٣) آل عمران: ١٩١.
(٤) الإسراء: ١٠٧، ١٠٨.
(٥) المائدة: ٨٢، ٨٣.

بالثاني؛ ولهذا قال:{بِمَا صَبَرُوا} أي: على اتباع الحق؛ فإنَّ تجشُّم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**ثلاثة يُؤتَونَ أجْرهم مَرّتَين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورَجُل كانت له أمَة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوَّجها**»

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيلحيني، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان ابن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إني لتحتَ راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولا حسنًا جميلا وقال فيما قال: "مَنْ أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا، ومَنْ أسلم من المشركين، فله أجره، وله ما لنا وعليه ما علينا

وقوله:{وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أي: لا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خَلْق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات، وصدقات النفل والقربات

وقوله:{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى:{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}[1]

{وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أي: إذا سَفه عليهم سَفيه، وكلمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا:{لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أي: لا نُريد طريق الجاهلين ولا نُحبّها

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان

(١) الفرقان: ٧٢.

يوصف لهم في كتابهم من أمره

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم الله مِنْ ركب بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركبًا أحمق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ أنفسَنا خيرًا[1]

قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أيّ ذلك كان

قال: ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ}** إلى قولـه:**{لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}**

قال: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن، قال: ما زلتُ أسمع من علمائنا أنهن أنزلهن في النجاشي وأصحابه، رضي الله عنهم، والآيات التي في سورة المائدة:**{ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا}** إلى قولـه:**{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** [2]

{إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}[3]

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها: أنها نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ فلما قدموا عليه، قرأ عليهم سورة يس، فجعلوا يبكون وأسلموا

وقيل: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود

وقيل: نزلت فى نصارى نجران

وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوما من أهل الكتاب أسلموا، وتعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام، مع أن فى اتباعها سعادتهم ورشدهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٢/١).
(٢) المائدة: ٨٢، ٨٣.
(٣) ابن كثير: ٣٩٢.

والضمير فى قولـه:{مِن قَبْلِهِ} يعود إلـى القرآن الكريم، أو إلـى النبـى ﷺ والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب، والمراد بالكتاب: التوارة والإنجيل

أى: الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى من قبل نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون، لأنهم يرون فيه الحق الذى لا باطل معه، والهداية التى لا تشوبها ضلالة

{وَإِذَا يُتْلَى} عليهم هذا القرآن{قَالُوا} بفرح وسرور{آمَنَّا بِهِ} بأنه كلام الله - تعالى:{إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا} أى: إنه الكتاب المشتمل على الحق الكائن من عند ربنا وخالقنا{إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ} أى: من قبل نزولـه{مُسْلِمِينَ} وجوهنا لله - تعالى، ومخلصين لـه العبادة

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أى فرق بين الاستئنافين{إِنَّهُ} و{إِنَّا}؟

قلت: الأول تعليل للإيمان بـه، لأن كونـه حقاً من الله حقيق بـأن يؤمن بـه والثانى: بيان لقولـه:{آمَنَّا بِهِ} لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم، لأن آباءهم القدماء قرؤوا فى الكتب الأول ذكره؛ وأبناءهم من بعدهم

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الأخيار من ثواب فقال:{أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ}

أى: أولئـك الموصـوفون بتلـك الصـفات الكريمـة يؤتـون أجـرهم مضـاعفا بسـبب صبرهم على مغالبة شهواتهم، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف

قال القرطبى: قولـه - تعالى:{أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ} ثبت فى صحيح مسلم عن أبـى موسـى أن رسـول الله ﷺ قـال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله – عز وجل – وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن تغذيتها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران**»

قال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بـأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين، فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه، ثم إنـه خوطب من جهة نبينا، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين

وقولـه - تعالى:{وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنة

و**{وَيَدْرَؤُنَ}** من الدرء بمعنى الدفع ومنه الحديث الشريف: " ادرؤوا الحدود بالشبهات "

أى: لا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يعفون ويصفحون، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} أى: ومما أعطيناهم من مال يتصدقون، بدون إسراف أو تقتير

{وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ} أى: وإذا سمعوا الكلام الساقط الذى لا خير فيه انصرفوا عنه تكرما وتنزها

{وَقَالُواْ} لمن تطاول عليهم وآذاهم: لنا أعمالنا، التى سيحاسبنا الله - تعالى - عليها**{وَلَكُمْ}** - أيضا - أعمالكم، التى سيحاسبكم الله - تعالى - عليها

{سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ} أى: سلام متاركة منا عليكم، وإعراض عن سفاهتكم، فليس المراد بالسلام هنا: سلام التحية، وإنما المقصود به سلام المتاركة والإعراض

{لاَ نَبْتَغِي الجاهلين} أى: إن ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين، وعن المجادلة معهم

قال ابن كثير ما ملخصه: لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبى ﷺ، وآمنوا به، وقاموا عنه، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تكد تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قاله، ما نعلم وفدا أحمق منكم فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه [1]

* * * * *

(١) سيد طنطاوي: ٣٩٢.

المطلب التاسع:

الإسلام دين الفطرة والتوحيد

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}(١)

يقول تعالى ذكره: فسدّد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين،**{حَنِيفًا}** يقول: مستقيما لدينه وطاعته**{فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها ونصبت "فطرة" على المصدر من معنى قوله:**{فَأَقِم وَجْهَكَ للدّينِ حَنِيفًا}** وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة

قال ابن جرير: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله:**{فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** قال: الإسلام مُذ خلقهم الله من آدم جميعا، يقرّون بذلك، وقرأ:**{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}** قال: فهذا قول الله:**{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ}**

عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرّ عمر بمُعاذ بن جبل، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهنّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة**{فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}**، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة فقال عمر: صدقت

قال صاحب الكشاف: قوله:**{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً}** أى: فقوم وجهك له وعدله، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلا به عليه

والمراد بالفطرة فى قوله - تعالى:**{فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس}** الملة أى: ملة الإسلام والتوحيد

أو المراد بها: قابلية الدين الحق، والتهيؤ النفسى لإدراكه والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة

(١) الروم: ٣٠ - ٣٢.

أى: اثبت - أيها الرسول الكريم - على هذا الدين الحق، والزموا - أيها الناس

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يقول - تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التى فطر الله الخلق عليها، فإنه - تعالى: فطر خلقه على معرفته وتوحيده

وفى الحديث: **«إنى خلقت عبادى حنفاء، فاجتالتهم – أى حولتهم – الشياطين عن دينهم»**

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: فطرة الله التى فطر الناس عليها»**

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم وحّد الخطاب أولا، ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله ﷺ أولا، وخطاب الرسول خطاب لأمته، مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص

وقوله:**{لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله}** تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التى فطر - سبحانه - الناس عليها

أى: الزموا فطرة الله التى هى دين الإسلام، وقبول تعاليمه والعمل بها، لأن هذا الدين قد ارتضاه الله - تعالى - لكم، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم

و**{ذَلِكَ}** الدين الذى اختاره - سبحانه - لكم، هو**{الدين القيم}** أى: القويم المستقيم، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه، فى قوله:**{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً}**

وقوله - تعالى:**{ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ}** استدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم

أى: ذلك الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة، بسبب استحواذ الشيطان عليهم، واتباعهم للأهواء الزائفة، والتقاليد الفاسدة

ثم حرضهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين القيم فقال:**{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة}**

قال القرطبى: وفى أصل الإنابة قولان: أحدهما، أنه القطع ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع، فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله - عز وجل - بالطاعة والثانى: أن أصله الرجوع، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة، ولفظ{مُنِيبِينَ} منصوب على الحال

والمعنى: أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده، كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة، ومتقين له فى كل أحوالكم، ومداومين على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع واطمئنان

{وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين} المبدلين لفطرة الله - تعالى - المتبعين لأهوائهم وشهواتهم

وقوله{مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً} بدل مما قبله

أى: ولا تكونوا من المشركين، الذين اختلفوا فى شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة

{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} أى: كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل، وملة فاسدة، وعقيدة زائفة، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده، وفي موضعه، بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده، وفي أغوار النفس وفطرتها يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} واتجه إليه مستقيماً فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، إنما تتبع الشهوات، والنزوات بغير ضابط ولا دليل أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه، مستقيماً على نهيه دون سواه:

{فِطْرَةَ اللَّهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين؛ وكلاهما من صنع الله؛ وكلاهما موافق لناموس الوجود؛

وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب لـه من المرض ويقومه من الانحراف وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير والفطرة ثابتة والدين ثابت:**{لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}** فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة(١)

* * * * *

المطلب العاشر:

أسباب المجادلة فى آيات الله وتفنيدها

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لاَتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(٢)

تكملة لتوجيه الرسول ﷺ للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح بالباطل فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر الذي يحيك في الصدور

ومن ثم يجيء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذي خلقه الله، وصغر الناس جميعاً بالقياس إلى السماوات والأرض ويمضي الدرس يعرض بعض الآيات الكونية وفضل

(١) سيد طنطاوى: ٤٠٧.
(٢) غافر: ٥٦ - ٦٥.

الله في تسخير بعضها للناس وهم أصغر منها وأضأل ويشير إلى فضل الله على الناس في ذوات أنفسهم وهذه وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذي يشركون به ويوجه الرسول ﷺ إلى الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله وينتهي الشوط بمشهد عنيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل ويختم كما ختم الشوط الماضي بتوجيه النبي ﷺ إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ما وعدهم، أم توفاه إليه قبل مجيء وعد الله فالأمر لله وهم إليه راجعون على كل حال

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ المُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}(١)

إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة، ينسى أنه كائن صغير ضعيف، يستمد القوة لا من ذاته، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول من الله فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمده من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله!

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن والله العليم بعباده، السميع البصير المطلع على السرائر، يقرر أنه الكبر والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته ومحاولة أخذ مكان ليس له، ولا تؤهله له حقيقته

وليست له حجة يجادل بها، ولا برهان يصدع به إنما هو ذلك الكبر وحده:**{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}**

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق

(١) غافر: ٥٦ - ٦٠.

الوجود، وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح، ولتطامن كذلك وتواضع، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله وفي استسلام لله وإسلام

{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}

والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحي باستبشاعه واستفظاعه فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشيء الفظيع القبيح، الذي يتوقع منه الشر والأذى وفي الكبر هذا كله وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله؛ وهو يؤذي الصدر الذي يحيك فيه ويؤذي صدور الآخرين فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه**{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** الذي يسمع ويرى، والكبر الذميم يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع فهو يكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه

ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته:**{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}**

والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراهما، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما ولكنه حين «يعلم» حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى، يطامن من كبريائه، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه، والذي من أجله كرمه فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم

ولمحة خاطفة عن السماوات والأرض تكفي لهذا الإدراك

هذه الأرض التي نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس! ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس

وهذه الشمس واحدة من نحو مائة مليون من الشموس في المجرة القريبة منا؛ والتي نحن منها وقد كشف البشر حتى اليوم نحو مائة مليون من هذه المجرات! متناثرة في الفضاء الهائل من حولها تكاد تكون تائهة فيه!

والذي كشفه البشر جانب ضئيل صغير لا يكاد يذكر من بناء الكون! وهو على ضآلته هائل شاسع يدير الرؤوس مجرد تصوره فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصغير بل هي على الأرجح أم هذه الأرض الصغيرة

ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة: ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال!

أما المجرة التي تتبعها الشمس فقطرها نحو من مائة ألف مليون سنة ضوئية والسنة الضوئية تعني مسافة ست مائة مليون ميل! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومائة ألف ميل في الثانية!

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمائة ألف سنة ضوئية!

ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها وعلم البشر هذا يعترف أن ما كشفه قطاع صغير في هذا الكون العريض!

والله سبحانه يقول:**{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}**

وليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر ولا أصعب ولا أيسر فهو خالق كل شيء بكلمة إنما هي الأشياء كما تبدو في طبيعتها، وكما يعرفها الناس ويقدرونها فأين الإنسان من هذا الكون الهائل؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير؟

{وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ}{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ المُسِيءُ} فالبصير يرى ويعلم؛ ويعرف قدره وقيمته، ولا يتطاول، ولا ينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصر والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه، ولا نسبته إلى ما حوله، فيخطئ تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به، ويتخبط هنا وهنالك من سوء التقدير وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير وهذا عمي وجهل فهو يسيء يسيء كل شيء يسيء إلى نفسه، ويسيء إلى الناس ويسيء قبل كل شيء

إدراك قيمته وقيمة ما حولـه ويخطئ في قياس نفسه إلى ما حولـه فهو أعمى والعمى عمى القلوب!

{قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ}

ولو تذكرنا لعرفنا فالأمر واضح قريب لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير ثم لو تذكرنا الآخرة، ووثقنا من مجيئها، وتصورنا موقفنا فيها، واستحضرنا مشهدنا بها:

{إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}

ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون، فلا يذعنون للحق، ولا يعرفون مكانهم الحق، فلا يتجاوزوه

والتوجه إلى الله بالعبادة، ودعاؤه والتضرع إليه، مما يشفي الصدور من الكبر الذي تنتفخ به، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه؛ وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار:

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}

وللدعاء أدب لا بد أن يراعى إنه إخلاص القلب لله والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها، أو تخصيص وقت أو ظرف، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال

والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله والاستجابة فضل آخر وقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أنا لا أحمل همّ الإجابة إنما أحمل همّ الدعاء فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه» وهي كلمة القلب العارف، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم! وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة، وفي هذه الحياة الرخيصة، وتنسى ضخامة خلق الله فضلاً على نسيانها عظمة الله ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس، تلك النعم التي توحي بعظمته تعالى والتي لا يشكرون الله عليها، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه:

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ * هُوَ الحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}(١)

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك وهي تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم، ومع رزق الله لهم من الطيبات وتعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني، وعلى وجود الصلة بينها، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق

إن بناء الكون على القاعدة التي بناه الله عليها، ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له، هو الذي سمح بوجود الحياة في هذه الأرض ونموها وارتقائها، كما أنه هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته وهو الذي جعل الليل مسكناً له وراحة واستجماماً، والنهار مبصراً معيناً على الرؤية والحركة، والأرض قراراً صالحاً للحياة والنشاط، والسماء بناء متماسكاً لا يتداعى ولا ينهار، ولا تختل نسبه وأبعاده ولو اختلت لتعذر وجود الإنسان على هذه الأرض وربما وجود الحياة! وهو الذي سمح بأن تكون هناك طيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتهبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان، الذي صوره الله فأحسن صورته، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون، الصالحة للظروف التي يعيش فيها فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى؛ ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد، بهذا الترابط ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده، مخلصاً له الدين، هاتفاً: الحمد لله رب العالمين ويقرر أن الذي يصنع هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون إلهاً وهو الله رب العالمين فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين؟

ونذكر هنا لمحات خاطفة تشير إلى بعض نواحي الارتباط في تصميم هذا الكون

(١) غافر: ٦١ - ٦٥.

وعلاقته بحياة الإنسان مجرد لمحات تسير مع اتجاه هذه الإشارة المجملة في كتاب الله

«لو كانت الأرض لا تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ما تعاقب الليل والنهار»

«لو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتناثرت المنازل، وتفككت الأرض، وتناثرت هي الأخرى في الفضاء»

«لو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر ومن برد وسرعة دوران الأرض حول نفسها، هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم، هي سرعة توافق ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع معانيها»

«لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها»

«ماذا يحدث لو استقام محور الأرض، وجرت الأرض في مدارها حول الشمس في دائرة، الشمس مركزها؟ إذن لاختفت الفصول، ولم يدر الناس ما صيف وما شتاء، وما ربيع وما خريف»

«لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين ولما أمكن وجود حياة النبات»

«ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره»

«لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المائة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً من ٢١ في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠ في المائة أو أقل فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان كالنار مثلاً تتوافر له»

إرتبطاً بهذا الوجود الكبير هناك آلاف الموافقات في تصميم هذا الكون لو اختل منها أدنى اختلال ما كانت الحياة في صورتها هذه التي نعرفها، موافقة هكذا لحياةالإنسان

فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء؛ وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التي تسمح له بالوجود والحركة في هذا الوسط الكوني كما هو كائن؛ وذلك كله فوق خاصيته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض؛ مجهزاً بأداة الخلافة الأولى: العقل والاتصال الروحي بما وراء الأشكال والأعراض

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه بوصفها داخلة في قوله تعالى:**{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}**[1] لوقفنا أمام كل عضو صغير، بل أمام كل خلية مفردة، في هذا الكيان الدقيق العجيب

ونضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة فك الإنسان ووضع الأسنان فيه من الناحية الآلية البحتة إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان، يزحم اللثة واللسان؛ وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك! ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السيجارة!

ثم إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهز ليعيش في هذا الكون عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يراها وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يسمعها وكل حاسة فيه أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته، ومجهزة كذلك بالقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف

إنه مخلوق لهذا الوسط ليعيش فيه، ويتأثر به، ويؤثر فيه وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه أي بالأرض والسماء ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها

(١) سورة غافر: ٦٤.

الأرض والسماء ألا إنه الإعجاز في هذا القرآن

وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان

ونقف وقفات سريعة أمام النصوص القرآنية:**{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً}**[1] إن السكون بالليل ضرورة لكل حي ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتزاول نشاطها في النور ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون بل لا بد من ليل لا بد من ظلام فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضروري لها من السكون

{وَالنَّهَارَ مُبْصِراً} والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص وكأنما النهار حي يبصر ويرى وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه لأن هذه هي الصفة الغالبة

وتقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم ولو كان أحدهما سرمداً بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس:

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}

ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين، بأن الذي خلقهما هو الذي يكون إلهاً يستحق هذا الاسم العظيم:**{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}**

وإنه لعجيب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله في كل شيء، ويعلموا أنه الخالق لكل شيء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله، ثم يصرف الناس عن الإيمان والإقرار**{فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}**

ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن كذلك كان في كل زمان؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان:

{كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}

وينتقل من ظاهرتي الليل والنهار، إلى تصميم الأرض لتكون قراراً، والسماء لتكون

(١) سزرة غافر: ٦١.

بناء:{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}

والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان، المحسوب حسابهم في تصميم هذا الوجود، المقدرة في بنائه تقديراً

ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات على النحو الذي أشرنا إلى بعض أسراره:{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ}

ويعقب على هذه الآيات والهبات كما عقب على الأولى:{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ}

ذلكم الذي يخلق ويقدر ويدبر، ويراعيكم ويقدر لكم مكاناً في ملكه ذلكم الله ربكم{فَتَبَارَكَ اللَّهُ} وعظمت بركته وتضاعفت{رَبِّ العَالَمِينَ} أجمعين

{هُوَ الحَيُّ}

أجل هو وحده الحي الحي حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة وغير مبتدئة ولا منتهية وغير حائلة ولا زائلة وغير متقلبة ولا متغيرة وما من شيء له هذه الصفة من الحياة سبحانه هو المتفرد بالحياة

وهو المتفرد بالألوهية بما أنه المتفرد بالحياة فالحي الواحد هو الله:

{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}

ومن ثم{فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} واحمدوه في الدعاء:{الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}

وأمام هذه الآيات والهبات، وما تلاها من تعقيبات، وفي أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية، وحقيقة الألوهية

وحقيقة الربوبية، يجيء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهي عن عبادة ما يدعون من دون الله، مأمور بالإسلام لله رب العالمين[1]

* * * * *

(١) الظلال: ٤٧٣.

المطلب الحادى عشر:
وحدة أصول الشرائع

المراد بالبينات فى قولـه - تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} الحجج والدلائل التى تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - وتدخل فيها المعجزات دخولا أوليا

والمراد بالكتاب: جنس الكتب وتشمل التوراة والإنجيل وغيرهما

والميزان: الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها فى المكاييل وغيرها والمراد بها العدل بين الناس فى أحكامهم ومعاملاتهم

وشاع إطلاق الميزان على العدل، باستعارة لفظ الميزان على العدل، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، والمراد بإنزاله، تبليغه ونشره بين الناس

أى: بالله لقد أرسلنا رسلنا، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم كتبنا السماوية، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحينا، وأنزلنا معهم العدل بأن أرشدناهم إلى طرقه، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه

قال ابن كثير: يقول الله - تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} أى: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات{وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ} وهو النقل الصدق{وَالْمِيزَانَ} وهو العدل أو وهوالحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة

وأكد - سبحانه - هذا الإرسال، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبى ﷺ ولبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام، وأن رسالته إنما هى امتداد لرسالتهم وقوله - تعالى:{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} علة لما قبله أى: أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتاب وشرعنا العدل، ليقوم الناس بنشر ما يؤدى إلى صلاح بالهم، واستقامة أحوالهم، عن طريق التزامهم بالحق والقسط فى كل أمورهم

قال الآلوسى: " والقيام بالقسط " أى: بالعدل، يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب، وهو - أى: القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به، معاشا ومعادا

وقوله - تعالى:{وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} معطوف على ما قبله

والمراد بإنزال الحديد: خلقه وإيجاده وتهيئته للناس، والإنعام به عليهم، كما فى قوله

- سبحانه:**{وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ}** والمراد بالبأس الشديد: القوة الشديدة التى تؤدى إلى القتل وإلحاق الضرر بمن توجه إليه، أى: لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم

وأوجدنا الحديد، وأنعمنا به عليكم، ليكون قوة شديدة لكم فى الدفاع عن أنفسكم، وفى تأديب أعدائكم، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم فى مصالحكم وفى شئون حياتكم

فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب ومنه - ومعه غيره - تتكون القصور الفارهة، والمبانى العالية الواسعة، والمصانع النافعة وآلات الزراعة والتجارة

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم بالهدايات السماوية التى تهدى الناس إلى ما يسعدهم وزودهم - أيضا - بالقوة المادية التى تحمى الحق الذى جاؤوا به وترد كيد الكائدين له فى نحورهم، وترهب كل من يحاول الاعتداء عليه، كما قال - تعالى:**{وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ}**[1] ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: أى: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، تنزل عليه السور المكية، لبيان أن دين الله حق

فلما قامت الحجة على من خالفه، شرع الله القتال بعد الهجرة، حماية للحق، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : **«بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم»**

ولهذا قال - تعالى:**{وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}** يعنى السلاح كالسيف والحراب **{وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}** أى: فى معايشهم كالفأس والقدوم وغير ذلك

هذا، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد، وفى بيان لماذا خصه الله - تعالى - بالذكر: الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: ثم إن الحديد

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله الله سهل الوجدان، كثير الوجود والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة، جعله الله - تعالى - عزيز الوجود

وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده، فإن كل شيء كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر

فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج الإنسان إليه - جعل الله تعالى - الحصول عليه سهلا ميسورا فعلمنا من ذلك أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر، كان وجدانه أسهل

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شيء، فنرجوه من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا، كما قال الشاعر:

سبحان من خص العزيز بعزة ::: والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذى ::: نفس، فمحتاج إلى أنفاسه

وقوله: - سبحانه:**{وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب}** معطوف على محذوف يدل عليه السياق

والمراد بقوله:**{وَلِيَعْلَمَ}** أى: وليظهر علمه - تعالى - للناس، حتى يشاهدوا آثاره

أى: وأنزل - سبحانه - الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله وليظهر - سبحانه - أثر علمه حتى يشاهد الناس، من الذى سيتبع الحق منهم، فينصر دين الله - تعالى - وينصر رسله، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة كونه لا يرى الله - تعالى - بعينيه، وإنما يتبع أمره، ويؤمن بوحدانيته ووجوده وعلمه وقدرته عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسول ﷺ

فقوله:**{بِالْغَيْبِ}** حال من فاعل**{يَنصُرُهُ}**

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله:**{إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** أى: أن الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التى ليس بعدها قوة وبالعزة التى لا تقاربها عزة

وختمت الآية بهذا الختام، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل، ولإنزال الكتب والحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس

فكان هذا الختام تعليل لما قبله أى: لأن الله - تعالى - قوى فى أخذه عزيز فى انتقامه فعل ما فعل من إرسال الرسل، ومن إنزال الحديد

وقولـه - سبحانه:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب} معطـوف على جملة:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات} عطف الخاص على العام

أى: لقد أرسلنا رسلا كثيرين وبـالله لقد أرسلنا نوحـا وإبـراهيم، وجعلنـا فـى ذريتهمـا عددا من الأنبيـاء، وأوحينـا إليهم كتبنـا، التـى تهدى أقوامهم إلـى طريـق الحـق، كـالتوراة التى أنزلناها على موسى، وكالزبور الذى أنزلناه على داود

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالـذكر، لشـهرتهما ولأن جميـع الأنبياء من نسلهما

والضمير فـى قولــه - تعـالى:{فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} أى: فمـن ذريـتهم مـن اهتدى إلى الدين الحق، وآمن به، وقام بأداء تكاليفه وكثير من أفراد هذه الذريـة فاسقون أى: خارجون عن الاهتداء إلى الحق منغمسون فى الكفر والضلال

{ثُمَّ قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ} والتقفيه إتباع الرسول برسول آخر يقال: قفا فلان أثر فلان إذا اتبعه، وقفى على أثره بفلان، إذا اتبعـه إيـاه وأصلـه مـن القفـا وهو مؤخر العنق فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه

وضمير الجمع فى قولـه:{عَلَى آثَارِهِم} يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانـت فيهم النبوة والكتاب

أى: ثـم أرسـلنا بعـدهم رسـولا بعـد رسـول حتـى انتهينـا إلـى عيسـى - عليـه السلام:{وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ} أى: أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه

قـالوا: والإنجيل كلمـة يونانيـة مـن النجـل وهـو الأصـل، يقـال: رحـم الله ناجليـه، أى: والديه، وقيل: الإنجيل مأخوذ من نجلت الشىء إذا استخرجته وأظهرته ويقال للماء الـذى يخـرج مـن البئـر: نجـل وقيـل هـو مـن النجـل الـذى هـو سـعة العين، ومنـه قـولهم: طعنـة نجلاء، أى: واسعة

وسمى الإنجيل بهذا الاسم، لأنه سعة ونور وضـياء، أنزلــه الله - تعـالى - علـى نبيـه عيسى، ليكون بشارة وهداية لقومه

وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة{قَفَّيْنَا} للإشعار بأن المسـافة التـى كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من بنى إسرائيل كانت مسافة طويلة

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التى كانت واضحة فى أتباع عيسى فقال:**{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله}**

والرأفة: اللين وخفض الجناح، والرحمة: العطف والشفقة

قالوا: وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص، لأن الرأفة، رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر أما الرحمة فهى أشمل وأعم، لأنها عطف وشفقة على كل من كان فى حاجة إليه

و " الرهبانية " معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهم النصارى المبالغون فى الرهبة والخوف من الله - تعالى - والزهد فى متاع الحياة الدنيا

قال بعض العلماء: والرهبانية: اسم للحالة التى يكون عليها الراهب متصفا بها فى غالب شؤون دينه، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس، لأن قياس النسب إلى الراهب: الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة فى النسبة، كما زيدت فى قولهم: شعرانى، لكثير الشعر، ولحيانى لعظيم اللحية

وقوله - تعالى:**{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}** منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر

أى: وابتدعوها رهبانية ابتدعوها، فهو من باب الاشتغال

ويصح أن يكون معطوفا على قوله:**{رَأْفَةً وَرَحْمَةً}** وقوله:**{ابْتَدَعُوهَا}** فى موضع الصفة، والكلام على حذف مضاف، أى: وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة لهم

وجملة: ما كتبناها عليهم، مستأنفة مبينة لجملة**{ابْتَدَعُوهَا}**

والاستثناء فى قوله:**{إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ}** منقطع

والضمير فى قوله:**{فَمَا رَعَوْهَا}** يعود لهؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية

والمعنى: ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر، حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه وآمنوا به**{رَأْفَةً}** أى لينا وخفض جناح**{وَرَحْمَةً}** أى: شفقة وعطفا، وحب رهبانية مبتدعة منهم، أى: هم الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم، زهداً فى متاع الحياة الدنيا

ونحن ما كتبنا هذه الرهبانية، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم{فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} أى: ولكنهم بمرور الأيام، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله:{فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}

أى: أما الذين استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام - وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا مما يفسده فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة

وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - حيث كفروا به وقالوا: الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: المسيح ابن الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب

وقوله:{وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم أكثر من الذين آمنوا به إيمانا صحيحا

قال الإمام ابن جرير: واختلف أهل التأويل فى الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، ولم يقوموا بها، ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى، فتنصروا وتهودوا

وقال آخرون: بل هم قوم جاؤوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوها حق رعايتها، لأنهم كانوا كفارا فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها

وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة أن يقال: إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، بعض الطوائف التى ابتدعتها، وذلك لأن الله - تعالى - قد أخبر أنه أتى الذين آمنوا منهم أجرهم، فدل ذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها

وكثير منهم - أى: من الذين ابتدعوا الرهبانية - أهل معاص، وخروج عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به

وقال الإمام الآلوسى ما ملخصه: وقوله - تعالى:{مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ} جملة مستأنفة

وقوله - سبحانه:{إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله} استثناء منقطع، أى: ما فرضناها نحن عليهم رأسا، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله

وقولـه - تعالى:**{فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}** أى: ما حافظوا عليها حق المحافظة، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته، لا سيما إذا قصد به رضاه - عز وجل

وجائز أن يكون الاستثناء متصلا من أعم العلل أى: ما قضيناها عليهم لشىء من الأشياء، إلا ليبتغوا بها رضوان الله، ويستحقوا بها الثواب، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها إلا أنهم لم يحافظوا عليها، ولم يرعوها حق رعايتها

والفرق بين الوجهين: أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا، وأن الثانى يقتضى أنهم أمروا بها، لابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها

والظاهر أن الضمير فى قولـه:**{فَمَا رَعَوْهَا}** يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية، والمراد: نفى وقوع الرعاية من جميعهم، أى: فما رعاها كلهم بل بعضهم

فالآية الكريمة تثنى على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - فطهروا أرواحهم من كل دنس، وزهدوا فى متع الحياة الدنيا وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله - تعالى:

ثم ختم - سحبانه - السورة الكريمة بهذا النداء للؤمنين فقال - تعالى:**{يأيها الذين آمَنُواْ اتقوا}**

أى: يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون، وداوموا على الإيمان برسوله ﷺ واثبتوا على ذلك

{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ} أى: يعطكم بسبب ذلك نصيبين وضعفين من رحمته - سبحانه - وفضله

وأصل الكفر - كما يقول القرطبى - كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط أى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى، كما يحفظ الكفل الراكب من السقوط

{وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ} أى: ويجعل لكم بفضله نورا تمشون به يوم القيامة كما قال - تعالى:**{يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم}** **{وَيَغْفِرْ لَكُمْ}** أى: ما فرط منكم من ذنوب، بأن يزيلها عنكم

{والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أى: واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد المؤمنين على تقواهم وعلى إيمانهم برسوله، أن يؤتيهم نصيبين من رحمته وأن يجعل لهم نورا يمشون به، فيهديهم إلى ما يسعدهم فى كل شئونهم، وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم فضلا منه وكرما

قالوا: وأعطى الله - تعالى - للمؤمنين نصيبين من الأجر، لأن أولهما بسبب إيمانهم بالرسول ﷺ

وثانيهما: بسبب إيمانهم بالرسل السابقين، كما أعطى مؤمنى أهل الكتاب نصيبين من الأجر: أحدهما للإيمان بالرسول ﷺ والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى نسخت شريعته بالشريعة المحمدية

وقوله - سبحانه:**{لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله}** رد على مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار، وأنهم أفضل من الأمة الإسلامية

قال الجمل ما ملخصه: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله - تعالى:**{أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ}** قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابنا وكتابكم ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم، فبأى شىء فضلتم علينا؟ فأنزل الله هذه الآية

و**{لاَّ}** زائدة، واللام متعلقة بمحذوف، هو معنى الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط، إذ التقدير: إن تتقوا وتؤمنوا برسوله، يؤتكم الله من فضله كذا وكذا - وقد أعلمناكم بذلك - لكى يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شىء من فضل الله

أى: أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله كالكفلين من رحمته وكمغفرة الذنوب - لأنهم لم يؤمنوا برسوله ﷺ ولم يخلصوا العبادة له - عز وجل

وقوله - سبحانه:**{وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم}** مؤكد لما قبله، ومقرر له

أى: ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشىء من فضل الله إلا إذا آمنوا بالله ورسله وليعلموا - أيضا - أن الفضل والعطاء بيد الله - تعالى - وحده، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده، وهو - سبحانه - صاحب الفضل

الواسع العظيم

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى الله - تعالى - واتباع رسوله ﷺ فى كل ما جاء به، وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا ما فعلوا ذلك

والرد على المتفاخرين من أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم ليس أحد أفضل منهم، وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول ﷺ أم استمروا على كفرهم

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية:**{يأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ}** فى حق هذه الأمة

وهى كقوله - تعالى:**{يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله ذُو الفضل العظيم}** ومما يؤيد هذا القول - أى: أن هذه الآية فى حق هذه الأمة - ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : **«مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئا، قالوا لا: قال فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء»** (١)

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، فيكون المعنى: يا من آمنتم بموسى وبعيسى وبمحمد - عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله ﷺ واثبتوا على ذلك، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته

وليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، أنهم لن ينالوا شيئا مما ناله المؤمنون منهم

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير، فقد قال -

(١) مسند أحمد: ٤٢٧٩.

رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: يقول - تعالى ذكره -: يأيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، خافوا الله، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم

أى: يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى وبمحمد - عليهما الصلاة والسلام

ويبدو لنا أن الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين من هذه الأمة، على سبيل الحض والتبشير، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك: **{لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله}** واضح فى ذلك، وأن جعل الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب لا دليل عليه

ولذا قال بعض المحققين: هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، فى المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح فى ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة، أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب [1]

* * * * *

(١) سيد طنطاوي: ٥٤١.

المطلب الثانى عشر:

بشارة عيسى بالرسول محمد ﷺ

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}(١)

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه:**{لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}** أي: لم توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال ﷺ : **«رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»** (٢)

وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يُوَصّلوا إليه أذى، كما قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** (٣)

وقوله:**{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}** أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى:

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}(٤)وقال**{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ له الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا**

(١) الصف: ٦ - ٩.
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٦٢٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) الأحزاب: ٦٩.
(٤) الأنعام: ١١٠.

تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[1] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية:**{وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}**

وقوله:**{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** يعني: التوراة قد بَشَّرَت بي، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشّر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة وما أحسن ما أورد البخاري الحديثَ الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جُبَير بن مُطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يَمحُو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»**

ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه [2]

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي عُبَيدة، عن أبي موسى قال: سَمَّى لنا رسول الله ﷺ نَفسه أسماءً، منها ما حفظنا فقال: **«أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة»**

ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به[3]

وقد قال الله تعالى:**{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}**[4] وقال تعالى:**{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}**[5]

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي

(١) النساء: ١١٥.
(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤).
(٣) مسند الطيالسي برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥).
(٤) الأعراف: ١٥٧.
(٥) آل عمران: ٨١.

ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يَزيد، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك قال: **«دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»**[1]

وهذا إسناد جيد ورُوي له شواهد من وجوه أخر، فقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العِرْباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ : **«إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجَدلٌ في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَين»** [2]

وقال أحمد أيضا: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: **«دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام»** [3]

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن بن موسى: سمعت خُدَيجًا أخا زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عُرْفُطة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سَجَدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا قال: فأين هم؟ قالا: هم في أرضك، فابعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٦٠٠/٢) من طريق يوني بن بكير عن ابن إسحاق به، وقال: "خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديث إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه". قلت: وقد ورد موصولاً كما سيأتي في رواية أحمد.

(٢) المسند (١٢٧/٤) وسعيد بن سويد لم يوثقه غير ابن حبان.

(٣) المسند (٢٦٢/٥).

وجل قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة

قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول، التي لم يمسها بَشَر ولم يَفْرضْها ولد قال: فرفع عودًا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه وأمَرَ بهدية الآخرَين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته[1]

وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: "أخبرنا عن بَدْء أمرك" يعني: في الأرض، قال: "دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت" أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه

وقوله:**{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}** قال ابن جريج وابن جرير:**{فَلَمَّا جَاءَهُمْ}** أحمد، أي: المبشر به في الأعصار المتقادمة، المنَّوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون:**{هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}**

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[2]

(١) المسند (٤٦١/١).
(٢) سورة الصف: ٧ - ٩.

ثم قال:{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي: يحاولون أن يَرُدّوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل؛ ولهذا قال:{وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة "براءة"، بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة (١)

جاء عيسى ابن مريم جاء يقول لبني إسرائيل:{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم}

فلم يقل لهم: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله

{مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}

في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسة الطويلة المتصلة

وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه فهو منهج واحد في أصله، متعدد في صوره، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، في ضوء تلك التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه:{النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ} وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتكتمها!

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية ولكن

(١) ابن كثير بتصرف: ٥٥٢.

اليهود كانوا يريدونه منهم فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار وهو القول الأخير

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل اليهود والنصارى للنبي الذي بشرت به كتبهم والتنديد بهذا الاستقبال، وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله، وأن يكون هو الدين الأخير!

{فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ}(١)

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم حاربوه بالاتهام:**{فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد الله ابن أبي بن سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق،

(١) الصف: ٦ - ٩.

وحاربوه في الأندلس في المغرب،

وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه «الرجل الأبيض» واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا «بطلاً»! ونفخوا فيه

وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلاً في أعين مواطنيه بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غير راية الدين**{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ}**

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم:**{هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!

{وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ} وصدق وعد الله أتم نوره في حياة الرسول ﷺ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين وتنبض وتنتفض قائمة على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد

لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي

العبيد! وإن خيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد!

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ}(١)

وشهادة الله لهذا الدين بأنه**{الْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ}** هي الشهادة وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله ظهر في ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته، فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال، وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى

وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله

(١) الصف: ٩.

تحقيقاً لوعد الله، الذي لا تقف لـه جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى وكانت تطميناً لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة بإذن الله[1]

* * * * *

المطلب الثالث عشر:

التوحيد والتنزيه لله تعالى

{قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ له كُفُوًا أَحَدٌ}

سألوا رسول الله ﷺ عن نسب ربّ العزّة، فأنزل الله هذه السورة جوابا لهم وقال بعضهم: بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه، فقالوا لـه: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فأنزلت جوابا لهم

ذكر من قال: أنزلت جوابا للمشركين الذين سألوه أن ينسب لهم الربّ تبارك وتعالى نزل ذلك من أجل مسألة اليهود:

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثني ابن إسحاق، عن محمد، عن سعيد، قال: أتى رهط من اليهود النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبيّ ﷺ حتى انتُقِع لونه، ثم ساورهم غضبا لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: " يقول الله:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ له كُفُوًا أَحَدٌ}**[2] " فلما تلا عليهم النبي ﷺ، قالوا: صف لنا ربك كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعه، فغضب النبيّ ﷺ أشدّ من غضبه الأول، وساورهم غضبا، فأتاه جبريل فقال لـه مثل مقالته، وأتاه

(١) الظلال: ٥٢٢.
(٢) سورة الإخلاص: ١ - ٤.

بجواب ما سألوه عنه:**{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**(١)

قال المشركون للنبي ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ له كُفُوًا أَحَدٌ}** لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جلّ ثناؤه لا يموت ولا يورث**{وَلَمْ يَكُنْ له كُفُوًا أَحَدٌ}**: ولم يكن له شبيه ولا عِدل، وليس كمثله شيء (٢)

هذه السورة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة قال البخاري: حدثنا إسماعيل: حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعد، **«**أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها فقال النبي ﷺ : **«والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن»** (٣)

وليس في هذا من غرابة فإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة وقد تضمنت السورة من ثم أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وهو لفظ أدق من لفظ «واحد» لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شئ غيره معه وأن ليس كمثله شيء

إنها أحدية الوجود فليس هناك حقيقة إلا حقيقته وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية

وهي من ثم أحدية الفاعلية فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء، في هذا أصلاً وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل

(١) الزمر: ٦٧.
(٢) الطبري: ٦٠٤.
(٣) البخارى: ٦١٥٢.

شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه اللذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً! فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي ولا حقيقة لفاعلية الإرادة الإلهية فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهام

يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله:**{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ} {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ}** وغيرها كثير

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوّماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله وأن لا وجود إلا وجوده

وأن لا فاعليـــــــة إلا فاعليتـــــــه ::: ولا يريـد طريقـاً غيـر هـذا الطريـق!

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة في السراء والضراء في النعماء والبأساء وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها فكلها خارجة من يد الله؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيع طليق الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب

إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير ولكن الإسلام لا يريده لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص إنه طريق أشق، ولكنه هو

الذي يحقق إنسانية الإنسان أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه وهذا هو الانطلاق انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب، لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة

ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح:

{اللَّهُ الصَّمَدُ} ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمراً إلا بإذنه والله سبحانه هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد

{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تعتورها حال بعد حال صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال ثم هي تقتضي زوجية تقوم على التماثل وهذه كذلك محال

ومن ثم فإن صفة**{أَحَدٌ}** تتضمن نفي الوالد والولد

{وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} أي لم يوجد لـه مماثل أو مكافئ لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية وهذا كذلك يتحقق بأنه**{احِدٍ}** ولكن هذا توكيد وتفصيل وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله بزعمهم ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض

وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه[1]

* * * * *

(١) الظلال: ٦٠٤.